# هــلاوس

ما زلت أقف عند الحد الفاصل بين النوم واليقظة، صداع قاتل يجتاح رأسي.. مطارقُ عملاقةٌ تدق بلا رحمة، مشاهد ضبابية، صور متتابعة، شريط سينمائي يمر أمامي لوجوه تبدو مألوفة، ووجوه لا أعرفها، أو ربما أعرفها، وجوهٌ تاهت في دروب عقلي الخفية، وجه عجوز صامت يدخن غليونه، طفلةٌ صغيرة تنظر ببراءة، وبيدها دميتها، مهرجٌ يبكي قليلا ثم يضحك بهستيريا، فراشةٌ ترفرف بجناحيها.. أتذكر أغنية تقول: أثر الفراشة لا يرى، أثر الفراشة لا يزول، هو جاذبية غامض، يستدرج المعنى، ويرحل حين يتّضح السبيل، ترفرف الفراشة بجناحيها، أرى العجوز يمسك بدميةِ الطفلة، والطفلة تجلس حزينةً أمام شاهد قبر، والمهرج ينتحر على عمود إنارة انطفأ نوره، كلّ شيء لم يكن مفهومًا حتى ظهرت هي، و اتضح السبيل، ظهرت كأجمل شيء، كحدث استثنائي، عينان سوداوان، ووجه تغار منه الملائكة إذا كان لها أن تغار، تبتسم ابتسامةً يتقاطر منها السكر، تقول بصوت عذب: أحبك، ثم فجأة، تذوب من أمامي كشمعة، كجناح فراشةٍ مسه النار فاختفى، تلاشت وكأنها لم تكن، يتغير المشهد، ما زال العبث مستمرًا، أسير في غابة، أشعّة الضوء تحاول جاهدة الإفلات من أغصانها المتشابكة، الظلالُ والخيالات هي المسيطرة على المشهد، غرابٌ ينعِقُ على فرع شجرة يابس، نذير شؤم، الحيات والأفاعي تزحف حولي وصوت فحيحها يصمّ أذني،

الأغرب أنني أعلم أنه حُلم ومع ذلك أشعر بالخوف، أقترب من شجرة ضخمةٍ يبدو أن عمرها أكثر من ألف عام، كأنها أول شجرة نبتتْ على هذه الأرض، يحيط بها سبعةُ رجال يرتدون زيًّا كهنوتيًّا أسود اللون، يتلون صلاة، من المؤكد أن إلههم ليس خيرًا على الإطلاق، لما اقتربت؛ ابتسم أحدهم قائلا:

– لقد جاء المخلّص!

– مخلّص؟! لا أنتم مخطئون.. لست مخلصا لأحد.

فجأة انقض عليّ ثلاثة منهم، حاولت المقاومة والصراخ، أنا لست من تعتقدون، ما يزالون يتمتمون بأناشيد الموت تلك، أحاول المقاومة، ولكنني لا أستطع مقاومتهم، قيّدوني في جذع الشجرة الضخم، وبدأ كبيرهم يتمتم، ويرتّل بلغة غير مفهومة، و أنا أحاول فك القيد، ويقترب مني، ويبتسم، فأرى في عينيه الظلام، يخرج خنجرًا من طيات ثيابه، وبسرعة خاطفة يغرسه في قلبي، يغرقني الدم، ويسيل على الأرض بغزارة.

أصحو فزِعًا، أنا على الفراش ومروحة السقف تدور في بطء.. هناك أنابيب تحقن جسدي بسائل ما، وأسلاك متصلةٌ بصدري، أنا في مستشفى.. ماذا حدث لي؟ لماذا لا أتذكر شيئا؟ هل فقدت الذاكرة؟ ما اسمي؟ لا أتذكر سوى تلك الهلاوس، ووجوها ضبابية إلا وجهها هو الوحيد الواضح النقي!

_ أرى أن فارسنا الوسيم قد عاد. التفتُّ ناحية الباب لأرى ممرضة تبتسم لي.. لماذا لا تبدو مريحة؟

أنطق بصعوبة:

– أين أنا؟

تقترب من المحلول المعلق، ملامحها صارمة جامدة رغم الابتسامة التي لا تفارق شفتيها.. عيناها زرقاوان وشعرها أشقر قصير.. تبدو مخيفة وهي تغرس سن المحقن في المحلول... أرجو ألا يكون مادة سامة!

- أنت في مستشفى، جئتنا منذ ثلاثة أيام.

- ماذا حدث؟

- حادث سيارة!

أحاول أن أتذكر أي شيء.

- أنا لا أتذكر ما حدث!

- لا تخف قد يكون فقدان ذاكرة مؤقتا بسبب اصطدام رأسك في الحادثة، وسيأتي الدكتور (مجدى) ليرى حالتك ويطمئنك!

- ألا تعرفين من أنا؟

- لا، لم نجد معك أي إثبات لشخصيتك!

- هل كان معي أحد؟

- نعم، فتاة في أواخر العشرينيات، ولكن للاسف لم تنجُ.. ماتت عند وصولها.

- هل تتذكرها؟

صوت الممرضة يبتعد ويصبح أبطأ.. أشعر بالخدر يتسلل إلى جسدي

- ماذا وضعت في المحلول؟

تقترب وصوتها يأتي من بعيد:

– إنه مهدئ.

ترمقنى بنظرة مبهمة وابتسامة غامضة.. كانت ودودة أكثر من اللازم ودائما ما كان عندي فوبيا من هؤلاء الأشخاص.

********

فى المستشفى صمتٌ رهيب، أرفع صوتي، أنادي على تلك الممرضة النازية.. لا أحد يجيب!

صمتٌ مخيف.. كيف يكون هذا السكون؟ أليس هناك مرضى آخرون وأطباء وممرضات؟

أحاول أن أغادر السرير.. أجد صعوبة بالغة..

- ما زلتَ تحتاج إلى الراحة. تطل على بوجهها المبتسم المخيف.

- لماذا لا أسمع أصواتًا وحركة في المستشفى وكأنه لا يوجد إلا أنا؟

تطلق ضحكتها قائلة:

- إننا في المستشفى نحب الهدوء التام، وهناك عقوبات صارمة لمن يحدث أي إزعاج.. تلوح بإصبعها.. حتى ولو كان مريضًا..

ثم تكمل حديثها قائلة:

- الدكتور (مجدي) سيصل بعد دقائق ليرى حالتك، ألم تتذكر أي شيء بعد؟

- لا.

- قد يكون مفيدًا أحيانا أن ينسى الإنسان حياته ويبدأ من جديد.. إنني أحسدك.

تضحك ضحكتها المخيفة وتكمل:

– قد تكون قاتلا متسلسلا يبحث عن ذوات الشعر الأحمر!

أحدث نفسي قائلا:

– لو كنت كذلك ستكونين أنت أول الضحايا.. وسأحتفظ بعينيك في قارورة زجاجية.

تكمل:

- وقد تكون بائسًا في حياتك، لا معنى ولا قيمة لحياتك وفقدان ذاكرتك ومحو حياتك قد تكون نعمة لا تتخيلها.

- قاتل.. طباخ.. أريد أن أستعيد ذاكرتي.

تضحك:

- وقد تكون الاثنين معًا.. طباخ وقاتل!

أقول بسخرية:

- أنت تتمتعين بحس فكاهيٍّ عالٍ!

تقترب مني قائلة:

- وهناك أمور أخرى لا تعلمها.

يدخل رجل خمسينيّ، أشيب الشعر يرتدى نظارة طبية، وعينان تطلان من خلف النظارة، تعدك بأنها تعرف كل شيء.. متوسط الطول ذو جبهة عريضة تنم عن ذكاء حاد!

تحدثه قائلة: دكتور (مجدي) إننا ننتظرك!

يبتسم الدكتور (مجدي) قائلا: أهلا بمريضنا الفاقد للذاكرة.

يجلس على كرسيّ قريب، ويوجه حديثه إلى الممرضة: أرجوك يا (مرفت) فنجان القهوة المعتاد.

تذهب هي وتتركني مع الدكتور (مجدي).

أقول: لماذا لا أتذكر أي شيء يا دكتور؟

يقول: أكيد من الحادثة وارتطام رأسك، قد يسبب فقدان مؤقت للذاكرة.. هل أنت لا تتذكر أي شيء حتى لو كان في أحلامك.. ألا تراودك أحلام؟ هل ترى شيئا؟

- مجرد هلاوس.. أضغاث أحلام.

- ألا يوجد وجه في الحلم تتذكره.. وجه مألوف؟

- نعم هناك وجه فتاة جميلة أشعر أنني أعرفها بل أعتقد أنني أحبها.

- حدثني أكثر عن أحلامك.

- غابةٌ وكهنةٌ وساحرةٌ ما.. أشياء من هذا القبيل، مجرد تخاريف.

- الأحلام بوابة قد نستطيع من خلالها فهم من أنت.. من تكون.. نعرف مخاوفك، ما تحب وما تكره، فنحن كما يقولون: قد صنعنا من مادة الأحلام. يبتسم قائلا: ثم ما أدراك أن ما تراه هو هلاوس وتخاريف أليس من الممكن أن يكون هو الحقيقة.. و أنا و أنت الآن مجرد وهمٍ، حُلمٍ آخر لم تستيقظ منه بعد.

أشعر بصداع رهيب.. أسمع صوته يتضخم ويصبح أبطأ.. أُغلق عيني.. يتلاشى كل شيء أمامي.

المشهد يتضح الآن.. أنا في مقهى ما تجلس أمامي تلك الفتاة التي أراها في أحلامي.. ترتجف وهي ترتشف رشفات من كوب أمامها، ماذا يحدث لي؟ أين ذهب الدكتور والمستشفى؟ هل أصبحت مجنونًا؟ يبدو الاضطراب على وجهي.. تقول: هل أنت بخير؟

أقول والصداع يقتلني: من أنت؟

- ماذا أصابك يا (شريف)؟

- أرجوك من أنت؟

- أنا خطيبتك (مي) ماذا بك هل أنت مريض؟

أتساءل:

- و أنا اسمي (شريف)؟

تنزعج قائلة:

- هل هي مزحة سخيفة أم ماذا؟!

نظرات تجول بالمكان.. مقهى صغير ورواده قلائل، نغمات هادئة وضوء باهت يرسل في جسدك الخدر.

(مي):

- (شريف) ما بك؟

في تلك اللحظة يجتاح رأسي ألم مرعب، وأرى تاريخ حياتي يمر أمامي طفولتي وصباي وشبابي، وذكرياتي في الجامعة كلية الهندسة وحبي لـ(مي) ولقاءاتنا وأحلامنا لقد تذكرت كل شيء!

صوت (مي) يصرخ:

– لا بد أن نذهب لطبيب؛ يبدو عليك المرض.

أعود لطبيعتي أحاول أن أبتسم قائلا:

- يبدو أنك تخافين علي.. أنا الآن أفضل فنجان قهوة سيعيد لي حيويتي.

أشرب القهوة على عجل على خلاف رأى الشاعر.. نغادر المقهى وننتظر تاكسي ليقلنا.. اصطدمت عيني بعيني الدكتور (مجدي) وهو يسير بجانب (مرفت) الممرضة النازية.

ابتسم لي ابتسامة غامضة وهو يقترب مني وكأني سمعته يقول: أراك في حياة أخرى.